دور النمو

(١٢٩٩ـ ١٤٥٣)

وهذا الدور ضم كل من عثمان الأول - أورخان الأول - مراد الأول - بايزيد الأول (الصاعقة) - محمد الأول - مراد الثاني - محمد الثاني الفاتح ٠

عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه

(٦٥٦ هـ/١٢٥٨م - ١٣٢٦م)

مؤسس الدولة العثمانية وأول سلاطينها وإليه تنسب وشهدت سنة مولده غزو المغول بقيادة هولاكو لبغداد وسقوط الخلافة العباسية.

تولى الحكم عام ٦٨٧ هـ بعد وفاة أبيه أرطغرل بتأييد من الأمير علاء الدين السلجوقي وقام الأمير السلجوقي بمنحه أي أراض يقوم بفتحها وسمح له بضرب العملة لما قتل

الأمير علاء الدين من قبل المغول وقتلوا معه ابنه غياث الدين الذي تولى مكانه وقام بدعوة حكام الروم في آسيا الصغرى إلى الإسلام فإن أبوا فعليهم أن يدفعوا الجزية فإن أبوا فالحرب، فخافوا منه واستعانوا عليه بالمغول فأرسل إليهم جيشا بقيادة ابنه أورخان فهزمهم وأكمل الجيش مسيرته ففتح بورصة.

وتعاقب على إمارة السلطنة العثمانية قبل أن تعلن نفسها خلافة إسلامية سلاطين أقوياء، ويعتبر عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة وبانيها، فماذا صنع عثمان ؟ لقد بدأ عثمان يوسع إمارته فتمكن من أن يضم إليه عام ٦٨٨ قلعة قره حصا (القلعة السوداء) أو أفيون قره حصار، فسر الملك علاء الدين بهذا كثيراً فمنحه لقب بيك والأراضي التي يضمها إليه كافة، وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة.

وعام ٦٩٩ أغار المغول على إمارة علاء الدين ففر من وجههم، ولجأ إلى إمبراطور بيزنطية، وتوفي هناك في العام نفسه، ويقال أن المغول قد تمكنوا من قتله ، وتوليه ابنه غياث الدين مكانه، ثم إن المغول قد قتلوا غياث الدين، ففسح المجال لعثمان إذ لم تعد هناك سلطة أعلى منه توجهه أو يرجع إليها في المهمات، فبدأ يتوسع،وإن عجز عن فتح أزميد (أزميت)،(نيقية) رغم محاصرتهما، واتخذ مدينة يني شهر أي المدينة الجديدة قاعدة له، ولقب نفسه باديشاه آل عثمان.

واتخذ راية له، وهي علم تركيا اليوم، ودعا أمراء الروم في آسيا الصغرى إلى الإسلام، فمن أبى عليه أن يدفع الجزية، فإن رفض فالحرب هي التي تحكم بينه وبينهم، فخشوا على أملاكهم منه، فاستعانوا بالمغول عليه، وطلبوا منهم أن ينجدوهم ضده، غير أن عثمان قد جهز جيش بإمرة ابنه أورخان الذي قارب الثلاثين من العمر، وسيره لقتال المغول فشتت شملهم ثم عاد واتجه إلى بورصة فاستطاع أن يدخلها عام ٧١٧ وتعد من الحصون الرومية المهمة في آسيا الصغرى، وأمن أهلها وأحسن إليهم فدفعوا له ثلاثين ألفاً من عملتهم الذهبية، وأسلم حاكمها أفرينوس، فمنحه عثمان لقب بيك، وأصبح من القادة العثمانيين البارزين وتوفي عثمان عام ٧٢٦،وقد عهد لابنه أورخان بالحكم بعده.

أهم الصفات القيادية في عثمان

١- الشجاعة عندما تنادى أمراء المسيحيين في بورصة ومادانوس وأدره نوس وكته وكستله البيزنطيون في عام ٧٠٠هـ لتشكيل حلف صليبي لمحاربة عثمان واستجابت النصارى لهذا النداء وتحالفوا تقدم عثمان بجنوده وخاض الحروب بنفسه وشتت الجيوش الصليبية وظهرت منه شجاعة أصبحت مضرب المثل.

٢- الحكمة : لقد رأى من الحكمة أن يقف مع السلطان علاء الدين ضد النصارى، وساعده في افتتاح جملة من مدن منيعة، وعدة قلاع حصينة، ولذلك نال رتبة الإمارة من السلطان السلجوقي علاء الدين.

٣- الإخلاص : عندما لمس سكان الأرضي القريبة من إمارة عثمان إخلاصه للدين تحركوا لمساندته والوقوف معه لتوطيد دعائم دولة إسلامية تقف سداً منيعاً أمام الدولة المعادية للإسلام والمسلمين.

٤- الصبر : وظهرت هذه الصفة في شخصيته عندما شرع في فتح الحصون والبلدان، ففتح في سنة ٧٠٧هـ حصن كته، وحصن لفكة، وحصن آق حصار، وحصن قوج حصار وفي سنة ٧١٢هـ فتح كبوه وحصن يكيجه طرا قلوا، وحصن تكرر بيكاري وغيرها، وقد توج فتوحاته هذه بفتح مدينة بروسة في عام ٧١٧هـ، وذلك بعد حصار صعب وشديد دام عدة سنوات، كان من أصعب ما واجهه عثمان في فتوحاته.

٥- الجاذبية الإيمانية : وتظهر هذه الصفة عندما احتك به اقرينوس قائد بروسه واعتنق الإسلام أعطاه السلطان عثمان لقب بك وأصبح من قادة الدولة العثمانية البارزين فيما بعد، وقد تأثر كثير من القادة البيزنطيين بشخصية عثمان ومنهجه الذي سار عليه حتى امتلأت صفوف العثمانيين منهم، بل إن كثيراً من الجماعات الإسلامية انخرطت تحت لواء الدولة العثمانية كجماعة جزياروم أي غزاة الروم، وهي جماعة إسلامية كانت ترابط على حدود الروم وتصد هجماتهم عن المسلمين منذ العصر العباسي، وجماعة الإخيان (أي الإخوان)وهم جماعة من أهل الخير يعينون المسلمين ويستضيفونهم ويصاحبون جيوشهم لخدمة الغزاة ويتولون إقامة المساجد والتكايا والفنادق، وجماعة (حاجيات روم) أي

حجاج أرض الروم، وكانت جماعة على فقه بالإسلام ومعرفة دقيقة لتشريعاته، وكان هدفها معاونة المسلمين عموماً والمجاهدين خصوصاً وغير ذلك من الجماعات.

٦- عدله : تروى معظم المراجع التركية التي أرخت للعثمانيين أن أرطغرل عهد لابنه عثمان مؤسس الدول العثمانية بولاية القضاء في مدينة قره جه حصار بعد الاستيلاء عليها من البيزنطيين عام ٦٨٤هـ، وأن عثمان حكم لبيزنطي نصراني ضد مسلم تركي، فاستغرب البيزنطي وسأل عثمان : كيف تحكم لصالحي وأنا على غير دينك، فأجابه عثمان : بل كيف لا أحكم لصالحك، والله الذي نعبده، يقول لنا : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) فاهتدى الرجل وقومه إلى الإسلام لقد استخدم عثمان العدل مع رعيته وفي البلاد التي فتحها، فلم يعامل القوم المغلوبين بظلم أو جور ٠

٧- الوفاء : كان شديد الاهتمام بالوفاء بالعهود، فعندما اشترط أمير قلعة أولوباد البيزنطية حين استسلم للجيش العثماني، أن لا يمر من فوق الجسر أي عثماني مسلم إلى داخل القلعة التزم بذلك وكذلك من جاء بعده.

٨- التجرد : فلم تكن أعماله وفتوحاته من أجل مصالح اقتصادية أو عسكرية أو غير ذلك، بل كان فرصة لتبليغ دعوة الله ونشر دينه ولذلك وصفه المؤرخ أحمد رفيق بأنه كان متديناً للغاية، وكان يعلم أن نشر الإسلام وتعميمه واجب مقدس وكان مالكاً لفكر سياسي واسع متين، ولم

يؤسس عثمان دولته حباً في السلطة وإنما حباً في نشر الإسلام ويقول مصر أوغلو : لقد كان عثمان بن أرطغرل يؤمن إيماناً عميقاً بأن وظيفته الوحيدة في الحياة هي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وقد كان مندفعاً بكل حواسه وقواه نحو تحقيق هذا الهدف.

كانت شخصية عثمان متزنة وخلابة بسبب إيمانه العظيم بالله واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة، فجعل له قدرة على التصرف في آسيا الصغرى من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة ، لقد كانت رعاية الله له عظيمة ولذلك فتح له باب التوفيق وحقق ما تطلع إليه من أهداف وغاية سامية.

الدستور الذي سار عليه العثمانيون

كانت حياة الأمير عثمان جهاداً ودعوة في سبيل الله، وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمارة، ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد، يقول عثمان في وصيته : (يا بني : إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، وإذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً يا بني : أحط من

أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود، ولا يغرك الشيطان بجندك وبمالك، وإياك أن تبتعد عن أهل الشريعة يا بني : إنك تعلم أن غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين، وأن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق، فتحدث مرضات الله جل جلاله يا بنى : لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة الحكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا ونموت، وهذا يا ولدي ما أنت له أهل).

وفي كتاب (التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية) تجد رواية أخرى للوصية (اعلم يا بني، أن نشر الإسلام، وهداية الناس إليه، وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله عز وجل عنها).

وفي كتاب مأساة بني عثمان نجد عبارات أخرى من وصية عثمان لابنه أورخان تقول : (يا بني، أنني انتقل إلى جوار ربي، وأنا فخور بك بأنك ستكون عادلاً في الرعية، مجاهداً في سبيل الله، لنشر دين الإسلام يا بني، أوصيك بعلماء الأمة، أدم رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم، وانزل على مشورتهم، فانهم لا يأمرون إلا بخير يا بني، إياك أن تفعل أمراً لا يرضى الله عز وجل، وإذا صعب عليك أمر فاسأل علماء الشريعة، فانهم سيدلونك على الخير واعلم يا بني أن طريقنا الوحيد في هذه الدنيا هو طريق الله، وأن مقصدنا الوحيد هو نشر دين الله، وأننا لسنا طلاب جاه ولا دنيا).

لقد كانت هذه الوصية منهجاً سار عليه العثمانيون، فاهتموا بالعلم والمؤسسات العلمية ،والجيش والمؤسسات العسكرية، والعلماء واحترامهم، والجهاد الذي أوصل فتوحاً إلى أقصى مكان وصلت إليه راية جيش مسلم، وبالإمارة وبالحضارة ونستطيع أن نستخرج الدعائم والقواعد والأسس التي قامت الدولة العثمانية عليها من خلال تلك الوصية.

أورخان غازي

(٦٨٠ هـ/١٢٨٨ م-٧٦١ هـ/١٣٦٠ م)

خلف والده عثمان بن أرطغل عام ٦٢٧ هـ/١٣٢٤م وعمره ستة وثلاثون عاماً وقد اعتمد على أعوان أقوياء لوضع القوانين وسن الأنظمة أبرزهم أخوه الأمير علاء الدين الذي نصبه وزيراً له وكذلك علاء الدين بن الحاج كمال الدين وقرة خليل جاندارلي وفي عهده نقلت عاصمة الدولة العثمانية من أسكى شهر إلى بورصة كما تم سك أول نقد عثماني وتمكن من انتزاع أزمير وأنقرة وامتلك قره سي وبرغمة ثم حاصر سمندره وإيدوس واستولى عليهما وقد دامت فترة حكمه خمسة وثلاثين عاماً خلف سبعة أولاد هم : سليمان باشا وقد توفي

في حياة أبيه، مراد بك، إبراهيم بك، فاطمة سلطان، خليل بك، سلطان بك وقاسم بك.

وأهم عمل قام به هو تأسيس جيش الإنكشارية الذي ساعد الدولة العثمانية في استمرار فتوحاتها لـ٢٠٠عام كما حرص على تحقيق بشارة الرسول ص في فتح القسطنطينية ووضع خطة إستراتيجية تهدف إلى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آن واحد ولتحقيق ذلك أرسل ابنه وولي عهده سليمان لعبور مضيق الدردنيل والاستيلاء على بعض المواقع في الناحية الغربية.

وفي عام ٧٥٨هـ إجتاز سليمان مضيق الدردنيل ليلاً مع أربعين رجلاً من فرسان الإسلام ولما أدركوا الضفة الغربية استولوا على الزوارق الرومية هناك وعادوا بها إلى الضفة الشرقية إذ لم يكن للعثمانين أسطول حينذاك حيث لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها وفي الضفة الشرقية أمر سليمان جنوده أن يركبوا الزوارق حيث تنقلهم إلى الشاطئ الأوروبي ففتحوا قلعة ترنب وجاليبولي التي فيها قلعة جنا قلعة وأبسالا ورودستو وكلها تقع على مضيق الدردنيل من الجنوب إلى الشمال وبهذا خطى السلطان خطوة كبيرة استفاد بها من جاء بعده في فتح القسطنطينية.

سياسة أورخان الداخلية والخارجية

إهتم أورخان بتوطيد أركان الدولته وتولى الاصلاح والعمران ونظم شؤون الإدارة وقوى الجيش وبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمون وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة وكانت كل قرية بها كلياتها التي تعلم النحو والتراكيب اللغوية والمنطق والميتافزيقا وغيرها.

وقد أمضى أورخان بعد استيلائه على إمارة قرة سي من الروم وذلك سنة١٣٣٦م عشرين سنة دون أن يقوم بأي حروب بل قضاها في صقل النظم المدنية والعسكرية التي أوجدتها الدولة وفي تعزيز الأمن الداخلي وبناء المساجد ورصد الأوقاف عليها وإقامة المنشآت العامة الشاسعة وما إن أتم أورخان البناء الداخلي حتى حدث صراع على الحكم داخل الدولة البيزنطية وطلب الإمبراطور كونتاكوزينوس مساعدة السلطان أورخان ضد خصمه فأرسل قوات من العثمانيين لتوطيد النفوذ العثماني في أوروبا وعام ١٣٥٨م أصاب زلزال مدن تراقيا فانهارت أسوار جاليبولي وهجرها أهلها مما سهل على العثمانين دخولها وما لبثت جاليبولي أن أصبحت أول قاعدة عثمانية في أوروبا ومنها انطلقت الحملات الأولى التي توجت في النهاية بالاستيلاء على كامل جزيرة البلقان.

العوامل التي ساعدت السلطان أورخان في تحقيق أهدافه

- استفادة أورخان من جهود والده عثمان ووجود الإمكانات المادية والمعنوية التي ساعدت على فتح الأراضي البيزنطية في الأناضول.
- تميز العثمانيون في المواجهة الحربية التي تمت بينهم وبين الشعوب البلقانية بوحدة الصف ووحدة الهدف ووحدة المذهب الديني وهو المذهب السني ولقد سهل التفكك السياسي والإنحلال الدين والإجتماعي الذي أصاب الدولة البيزنطية ضم أقاليم هذه الدولة إلى العثمانيين.
- ضعف الجبهة المسيحية نتيجة لعدم الثقة بين السلطات الحاكمة في الدولة البيزنطية وبلغاريا وبلاد الصرب والمجر ولذلك تعذر في معظم الأحيان تنسيق الخطط السياسية والعسكرية للوقوف ضد العثمانيين.
- الخلاف الديني بين روما والقسطنطينية أي بين الكاثولويك والأرثوذوكس.
- ظهور النظام العسكري الجديد على أسس عقدية ومناهج تربوية وأهداف ربانية وأشرف عليه خيرة قادة العثمانيين.

السلطان مراد الأول

ولد السلطان مراد الأول عام ٧٢٦ هـ - ١٣٢٦م،وهو العام الذى تولى فيه والده الحكم وإليه يرجع الفضل فى النقلة النوعية من دويلة عثمانية قبلية إلى سلطنة قوية وتسمى بالسلطان عام ١٣٨٣م أنشأ نظام الديوان للجند والفرسان السيباه وأنشأ مقاطعتين هما الروملي والأناضول وحاول أمير دولة القرمان في أنقرة أن يعد جيشاً مكوناً من جيوش الأمراء المستقلين في آسيا الصغرى لقتال العثمانيين لكنه فوجئ بجيش مراد الأول يحيط بمدينة أنقرة فاضطر لعقد صلح معه يتنازل فيه عن أنقرة.

استولى على مدينة فيلبة فصارت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين واضطر إمبراطورها لدفع الجزية وحاول الأمراء الأوروبيون الاستنجاد بالبابا وملوك أوروبا الغربية ضد المسلمين فلبى البابا النداء وبعث لملوك أوروبا عامة يطالبهم بشن حملة صليبية جديدة ولكن ملك الصرب لم يتوقع الدعم السريع فاستنهض الأمراء المجاورين له وهم أمراء البوسنة وجنوب رومانيا واتجهوا نحو أدرنة أثناء انشغال السلطان مراد الأول ببعض حروبه في آسيا الصغرى غير أن جيش العثمانيين أسرع للقائهم وهزمهم هزيمة منكرة.

قام بتنظيم فرق الخيالة التي عرفت باسم سيباه ويقصد بها الفرسان كما احتلت في عهده مدينة صوفيا عام ٧٨٤ هـ بعد حصار دام ثلاث سنوات واحتل مدينة سالونيك اليونانية وتمرد عليه ابنه ساوجى بالاتفاق مع ابن إمبراطور القسطنطينية فأرسل إلى ابنه جيشاً فقتله وقتل ابن الإمبراطور البيزنطي أيضاً وحاول أمير البلغار الهجوم على الدولة أثناء انشغال السلطان في حروبه في الأناضول، ولكن الجيوش العثمانية داهمته واحتلت بعض أجزاء من بلاده ففر إلى مدينة نيقوبولي فهزمه العثمانيون مرة أخرى وتم في عهده غزو مدينة صوفيا عاصمة البلغار ومدينة سالونيك.

حاول لازار ملك الصرب الانضمام للألبانيين ومحاربة العثمانيين فأدركه الجيش قبل وصوله إلى مبتغاه في سهل كوسوفو وفي المعركة انحاز صهر لازار إلى جانب المسلمين بفرقته المؤلفة من عشرة آلاف مقاتل فانهزم الصربيون ووقع ملكهم أسيرا بأيدى المسلمين، وهو جريح فقتلوه انتقاما لأفعاله الخسيسة بأسراه من المسلمين وفي نهاية المعركة كان السلطان مراد يتفقد القتلى فقام إليه جندي صربي جريح من بين القتلى وطعنه بخنجر فأرداه قتيلا وكان ذلك عام ٧٩١ هـ الموافق ٢٠ يونيو ١٣٨٩م وقتل الجندي العثماني الصربي القاتل مباشرة.

بايزيد الأول

١٣٤٥ ـ ١٤٠٣

حكم بين عام ١٣٨٩- ١٤٠٢ وتولى العرش بعد مقتل أباه مراد الأول،ومباشرة قضى على أخيه يعقوب خنقا ليمنعه من القيام بانقلاب عليه لقب باسم يلدرم أى الصاعقة نظرًا لحركته السريعة بجيوشه وتنقله بين عدة جهات فى منتهى السرعة.

كان في غاية الشجاعة والحماس للجهاد في سبيل الله غير أنه امتاز عمن سبقوه بسرعة الحركة وقوة الانقضاض على أعدائه لذا لقب بالصاعقة أو يلدرم باللغة التركية، وكان مجرد ذكر اسم يلدرم يوقع الرعب في نفوس الأوروبين عموماً وأهل القسطنطينية خصوصاً.

كانت منطقة الأناضول أو آسيا الصغرى دائماً هي منطقة الانطلاق لاى سلطان جديد، لأن هذه المنطقة منقسمة على نفسها لعدة إمارات صغيرة يحكمها أمراء متغلبون على رقاب المسلمين فيها، وقد سعى السلطان مراد الأول لتوحيد الأناضول بعدة وسائل، ولم يكد ينجح في ذلك حتى انفرط العقد مرة أخرى، حيث ثار هؤلاء الأمراء على العثمانيين وسببوا

لهم الكثير من المتاعب، وكانت ثوراتهم المتكررة سبباً لصرف جهود العثمانيين عن حرب أوروبا،مما جعل الأوروبيين يلتقطون أنفسهم ويشكلوا تحالفات صليبية متكررة لمحاربة العثمانيين، وفي سنة ٧٩٣ ه استطاع بايزيد أن يضم إمارات منتشا، آيدين وصاروخان دون قتال بناءاً على رغبة سكان هذه الإمارات، وقد لجأ حكام هذه الإمارات إلى إمارة اصفنديار، كما تنازل له أمير القرمان علاء الدين عن جزء من أملاكه بدلاً من ضياعها كلها، وقد أشتهر علاء الدين هذا بالغدر والخيانة وأخبار جرائمه أيام السلطان مراد الأول مشهورة، لذلك فلم يكن مستغرباً على هذا الرجل أن يثور مرة أخرى أيام بايزيد مستغلاً انشغاله بالجهاد في أوروبا حيث قام علاء الدين بالهجوم على الحاميات العثمانية وأسر كبار قادة العثمانيين واسترد بعض الأراضى، فعاد بايزيد بسرعته المعهودة وانقض كالصاعقة على علاء الدين وفرق شمله وضم إمارة القرمان كلها للدولة العثمانية وتبعتها إمارة سيواس وتوقات، ثم شق بايزيد طريقه إلى إمارة اصفنديار التي تحولت لملجأ للأمراء الفارين، وطلب بايزيد من أمير اصفنديار تسليم هؤلاء الثوار فأبى فانقض عليه بايزيد وضم بلاده إليه، والتجأ الأمير ومن معه إلى تيمورلنك.

وبعدما فرغ بايزيد من ترتيب الشأن الداخلى والقضاء على ثورات الأناضول، اتجه إلى ناحية أوروبا وبدأ أولى خطواته هناك بإقامة حلف ودي مع الصرب، وربما يستغرب القارئ من هذه المحالفة ذلك لأن

الصرب كانوا من أشد الناس عداوة للمسلمين وحتى الآن كذلك، ولأنهم كانوا السبب في قيام تحالف بلقانى صليبى ضد المسلمين، بل إن السلطان مراد الأول والد بايزيد قتل في حربه ضدهم، وكل هذه الأسباب كافية لمنع التحالف معهم، ولكن بايزيد الصاعقة كان له وجهة نظر ذكية، وهي أن الحلف مع الصرب يجعلهم بمنزلة الحاجز القوى بين الدولة العثمانية وإمبراطورية المجر التي كانت وقتها أقوى الممالك الأوروبية وتلعب بحامية الصليب، وكانت علاقة المجر والصرب متوترة، فاستغل بايزيد ذلك للتفرغ إلى الغرب والوسط الأوروبى وفتح القسطنطينية، وهذا من فقه الموازنة بين المصالح والمفاسد الذى يحتاجه الحاكم المسلم على الدوام، ولا يفهم من هذا الفقه إباحة ما حرمه الله عز وجل أو الإخلال بعقيدة الولاء والبراء، إنما هو من جنس المعاهدات المؤقتة التي تخدم هدفاً معيناً لفترة معينة، أى أنها لا تبطل شريعة الجهاد في سبيل الله أبداً وهي تشبه جنس معاهدة الحديبية وغيرها.

عين بايزيد إصطفان بن لازار ملكًا على الصرب عام ٧٩٢ هـ مقابل دفع جزية سنوية وتقديم عدد من المقاتلين ينضمون للجيوش العثمانية وقت الحرب تزوج أوليفير أخت أصطفان لكى لا يبقى مشغولاً بموضوع الصرب.

١-كان بايزيد يهدف من محالفته للصرب غاية هامة هي التفرغ للوسط الأوروبي والقسطنطينية لذلك فقد قام بتوجيه ضربة خاطفة إلى بلغاريا وفتحها سنة ٧٩٧ هـ ، وأصبحت بلغاريا من وقتها إمارة تابعة للدولة العثمانية، مما جعل أوروبا ترتجف رعباً تحت الصاعقة الإسلامية التي فتحت البلاد الواحدة تلو الأخرى، وفرض بايزيد على إمبراطور بيزنطة مانويل عدة شروط منها : إنشاء محكمة إسلامية وتعيين قضاه مسلمين للفصل في شئون الرعية المسلمة بها .

٢- بناء مسجد كبير بها والدعاء فيه للخليفة العباسي بمصر ثم السلطان بايزيد وذلك يوم الجمعة .

٣- تخصيص ٧٠٠ منزل داخل المدينة للجالية المسلمة بها .

٤- زيادة الجزية المفروضة على الدولة البيزنطية.

معركة نيقوبولس

كان سقوط بلغاريا وقبول مانويل للشروط السابقة بمثابة جرس الإنذار القوى لكل الأوروبيين خاصة ملك المجر سيجسموند والبابا بونيفاس التاسع، فاتفق الرجلين على تكوين حلف صليبى جديد لمواجهة الصواعق العثمانية المرسلة، واجتهد سيجسموند في تضخيم حجم هذا الحلف

وتدويله، باشتراك أكبر قدر ممكن من الجنسيات المختلفة، وبالفعل جاء الحلف ضخماً يضم مائة وعشرين ألف مقاتل من مختلف الجنسيات مثل: ألمانيا، فرنسا، إنجلترا، إسكتلندا، سويسرا وإيطاليا، ويقود الحلف سيجسموند ملك المجر وتحركت الحملة الصليبية الجرارة سنة ٨٠٠ هجرية، ولكن بوادر الوهن والفشل قد ظهرت على الحملة مبكراً، لأن سيجسموند قائد الحملة كان مغروراً أحمقاً لا يستمع لنصيحة أحد من باقى قواد الحملة، وحدث خلاف شديد على استراتيجيه القتال، فسيجسموند يؤثر الانتظار حتى تأتى القوات العثمانية، وباقى القواد يرون المبادرة بالهجوم، وبالفعل لم يستمعوا لرأى سيجسموند وانحدروا مع نهر الدانوب حتى وصلوا إلى مدينة نيكوبولس في شمال البلقان.

لم يكد الصليبيون يدخلون المدينة حتى ظهر بايزيد ومعه مائة ألف مقاتل كأنما الأرض قد انشقت عنهم، وكان ظهوره كفيلاً بإدخال الرعب والهول في قلوب الصليبيين فوقعت عليهم هزيمة مدوية حتى أن سيجسموند الذى وقف قبل المعركة يقول في تيه وغرور لو انقضت علينا السماء من عليائها لأمسكناها بحرابنا يهرب مثل الفأر المذعور ويلقى بنفسه في مركب صغير ويترك خلفه حملته الفاشلة تذوق ويلات هزيمة مروعة أسفرت معركة نيكوبولي عن نصر عظيم للمسلمين كان له أعظم الأثر في العالم الإسلامى بأسره، ووصلت بشارة الفتح إلي كل مكان

مسلم، وأرسل بايزيد إلى كبار حكام العالم الإسلامى يبشرهم بالفتح وبالعديد من أسرى النصارى كهدايا وسبايا لهؤلاء الحكام باعتبارهم دليلاً مادياً على روعة النصر، وأرسل بايزيد إلى الخليفة العباسى بالقاهرة يطلب منه الإقرار على لقب سلطان الروم الذى اتخذه بايزيد دليلاً على مواصلة الجهاد ضد أوروبا حتى يفتحها كلها، ووافق الخليفة على ذلك، وانساح كثير من المسلمين إلى بلاد الأناضول حيث الدولة العثمانية القوية المظفرة.

وانتقل إلى الأناضول عام ٧٩٣ هـ، فضم إمارة منتشا وإمارة آيدين وإمارة صاروخان ودون قتال تنازل له أمير دولة القرمان عن جزء من أملاكه كى يبقى له الجزء الباقى كما فتح مدينة ألاشهر وهي آخر مدينة كانت باقية للروم في غرب بلاد الأناضول وحاصر القسطنطينية عام ٧٩٤ هـ وتركها محاصرة واتجه بجيش إلى جنوب رومانيا وعقد معاهدة مع حاكمها تقضى بسيادة العثمانيين وبدفع جزية سنوية إلى السلطان ولكن تمرد عليه أمير دولة القرمان علاء الدين فواجهه وهزمه وأخذه وولديه أسرى.

محمد الأول

جلبي بن بايزيد هو السلطان الخامس للدولة العثمانية والملقب بالجلاد.

خلف أباه في السلطنة بعد أسره بيد تيمورلنك في وقعة (أنقرة) ووفاته سنة ٨٠٥ / هـ نازعه إخوته: سليمان وموسى وعيسى الملك وكل منهم يدعي التقدم عليه في السلطنة وتمكن من التغلب عليهم وقتلهم كانت مدة سلطنته التي دامت ١٩ سنة حروباً داخلية لإرجاع الإمارات السلجوقية التي استقلت في مدة الفوضى التي أعقبت موت السلطان بايزيد الأول في الأسر، وكان السلطان بايزيد قد استولى عليها وألحقها بالدولة العثمانية وأنشأ أسطولا بحريا قويا انتقى بحارته من أهل جنوه وكريت، ونقل كرسي المملكة من بورصة إلى أدرنه وكان محباً للشعر والأدب، شهماً محباً للعدل وأطلق عليه رعاياه لقب جلبي أي النبيل.

انتصر على أمير القرمان وعفا عنه، فعاد لقتاله فأسره مرة أخرى ثم عفا عنه، وفعل ذلك مع أمير أزمير فكان رحيمًا معهما على عكس ما كان مع إخوانه ظهر الأمير مصطفى بن بايزيد أخو السلطان محمد والذى اختفى بعد معركة أنقرة وطالب أخاه بالحكم وسار عليه بجيش ولكن هزم

ففر إلى سالونيك فطالب السلطان بتسليمه فأبى الإمبراطور ووعد بإبقائه تحت الإقامة الجبرية مادام السلطان على قيد الحياة فوافق السلطان وجعل لأخيه راتبًا شهريًا توفى عام ٨٢٤هـ بعد أن أوصى لابنه مراد من بعده، وكان في أماسيا يوم وفاة أبيه وكتم خبر وفاة السلطان حتى وصل مراد لأدرنه بعد واحد وأربعين يوماً ودفن السلطان محمد جلبى في بورصة.

أنشأ أسطولاً بحرياً قوياً انتقى بحارته من أهل جنوه وكريت، ونقل كرسي المملكة من بورصة إلى أدرنه كان محباً للشعر والأدب، شهماً محباً للعدل وأطلق عليه رعاياه لقب جلبي أي النبيل.

انتصر على أمير القرمان وعفا عنه، فعاد لقتاله فأسره مرة أخرى ثم عفا عنه، وفعل ذلك مع أمير أزمير فكان رحيماً معهما على عكس ما كان مع إخوانه وظهر الأمير مصطفى بن بايزيد أخو السلطان محمد الذى اختفى بعد معركة أنقرة وطالب أخاه بالحكم وسار عليه بجيش ولكن هزم

ففر إلى سالونيك فطالب السلطان بتسليمه فأبى الإمبراطور ووعد بإبقائه تحت الإقامة الجبرية مادام السلطان على قيد الحياة فوافق السلطان وجعل لأخيه راتبًا شهريًا توفى عام ٨٢٤هـ بعد أن أوصى لابنه مراد من بعده، وكان في أماسيا يوم وفاة أبيه وكتم خبر وفاة السلطان حتى وصل مراد لأدرنه بعد واحد وأربعين يوماً ودفن السلطان محمد جلبى في بورصة.

مراد الثاني

ابـن محمـد جلبـي سـادس السـلاطين العثمـانيين، عـاش بـين عـامي ١٤٠٤م - ١٤٥١م، أحب العربية ويعد أول من تعلم ومارس فن الخط العربي من سلاطين العثمانيين، كما أنه كان ينظم الشعر ويتقنه ،تولى الخلافة بعد وفاة أبيه عام ٨٢٤ هـ وكان عمره لايزيد على ١٨ عاما فترة حكمه تميزت بحروب طويلة الأمد مع مسيحيي البلقان والإمارات التركية في الأناضول.

السلطان الغازي محمد الثاني

الفاتح وبالتركية العثمانية: فاتح سلطان محمد خان ثاني عُرف في أوروبا خلال عصر النهضة أي ذات اللفظ الذي كان الأوربيون يلفظون به على اسم نبينا نبي الإسلام محمد ص، سابع سلاطين الدولة العثمانية وسلالة آل عثمان، يُلقب، إلى جانب الفاتح، بأبي الفتوح وأبو الخيرات، وبعد فتح القسطنطينية أضيف لقب قيصر إلى ألقابه وألقاب باقي السلاطين الذين تلوه حكم ما يقرب من ثلاثين عاماً عرفت توسعًا كبيراً للخلافة الإسلامية.

وهو من قضى نهائياً على الإمبراطورية البيزنطية بعد أن استمرّت أحد عشر قرنًا ونيفًا، ويعتبر الكثير من المؤرخين هذا الحدث خاتمة العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة، وعند الأتراك فهذا الحدث هو فاتحة عصر الملوك وتابع السلطان محمد فتوحاته في آسيا، فوحّد ممالك الأناضول، وتوغّل في أوروبا حتى بلجراد ومن أبرز أعماله الإدارية دمجه للإدارات البيزنطية القديمة في جسم الدولة العثمانية المتوسعة آنذاك ويُلاحظ أن محمد الثاني لم يكن أول حاكم تركي للقسطنطينية، فقد كان أحد الأباطرة الروم السابقين، والمدعو ليون الرابع من أصول خزرية، وهؤلاء قوم من الترك شبه رحّل كانوا يقطنون سهول شمال القوقاز وكان محمد الثاني عالي الثقافة ومحباً للعلم والعلماء، وقد تكلّم عدداً من اللغات إلى جانب اللغة التركية، هي: الفرنسية، اللاتينية، اليونانية، الصربية، الفارسية، العربية، والعبرية.

إخبار النبي ص عنه

نؤمن كمسلمين بأن النبي محمد ص تحدث عن أمير من أفضل أمراء العالم، وأنه هو من سيفتح القسطنطينية ويُدخلها ضمن الدولة الإسلامية، فقد ورد في مسند أحمد بن حنبل في الحديث رقم ١٨١٨٩: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، وَسَمِعْتُهُ أَنَا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ، قَالَ حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ، قَالَ حَدَّثَنِي الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَعَافِرِيُّ،

قالَ حَدّثَنِي عَبْدُ اللّهِ بْنُ بِشْرٍ الْخَثْعَمِيُّ، عَنْ أبيهِ، أنّهُ سَمِعَ النّبيّ صَ يَقُولُ لَتُفْتَحَنّ الْقُسْطَنْطِينِيّةُ فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ.

وُلد محمد الثاني، للسلطان مراد الثاني فجر الأحد ٢٠ أبريل، ١٤٢٩ م، الموافق ٢٦ رجب سنة ٨٣٣ هـ في مدينة أدرنة، عاصمة الدولة العثمانية آنذاك وعندما بلغ محمد الثاني ربيعه الحادي عشر أرسله والده إلى أماسيا ليكون حاكماً عليها وليكتسب شيئًا من الخبرة اللازمة لحكم الدولة، كما كانت عادة الحكّام العثمانيين قبل ذلك العهد فمارس محمد الأعمال السلطانية في حياة أبيه، ومنذ تلك الفترة وهو يعايش صراع الدولة البيزنطية في الظروف المختلفة، كما كان على اطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية، بل ويعلم بما سبقها من محاولات متكررة في العصور الإسلامية المختلفة وخلال الفترة التي قضاها حاكماً على أماسيا، كان السلطان مراد الثاني قد أرسل إليه عددًا من المعلمين لكنه لم يمتثل لأمرهم، ولم يقرأ شيئاً، حتى أنه لم يختم القرآن الكريم، الأمر الذي كان يُعد ذا أهمية كبرى، فطلب السلطان المذكور، رجلاً له مهابة وحدّة، فذكر له المولى أحمد بن إسماعيل الكوراني، فجعله معلماً لولده وأعطاه قضيبًا يضربه به إذا خالف أمره، فذهب إليه، ودخل عليه والقضيب بيده، فقال: أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري، فضحك السلطان محمد الثاني من ذلك الكلام،

فضربه المولى الكوراني في ذلك المجلس ضربًا شديدًا، حتى خاف منه السلطان محمد، وختم القرآن في مدة يسيرة.

هذه التربية الإسلامية كان لها أكبر الأثر في تكوين شخصية محمد الفاتح، فجعلته مسلماً مؤمناً ملتزماً بحدود الشريعة، مقيدًا بالأوامر والنواهي، معظماً لها ومدافعاً عن إجراءات تطبيقها، فتأثر بالعلماء الربانيين، وبشكل خاص معلمه المولى الكوراني وانتهج منهجهم وبرز دور الشيخ آق شمس الدين في تكوين شخصية محمد الفاتح وبث فيه منذ صغره أمرين هما: مضاعفة حركة الجهاد العثمانية، والإيحاء دوماً لمحمد منذ صغره بأنه الأمير المقصود بالحديث النبوي، لذلك كان الفاتح يطمع أن ينطبق عليه حديث النبي ص.

السلطان مراد الثاني

والد السلطان محمد الفاتح أبرم السلطان مراد الثاني معاهدة سلام مع إمارة قرمان بالأناضول، وعقب ذلك توفي أكبر أولاد السلطان واسمه علاء الدين، فحزن عليه والده حزنًا شديدًا وسئم الحياة، فتنازل عن الملك لابنه محمد ، وسافر إلى ولاية أيدين للإقامة بعيدًا عن هموم الدنيا وغمومها لكنه لم يمكث في خلوته بضعة أشهر حتى أتاه خبر غدر المجر وإغارتهم على بلاد البلغار غير مراعين شروط الهدنة اعتمادًا على تغرير

الكاردينال سيزاريني، مندوب البابا، وإفهامه لملك المجر أن عدم رعاية الذمة والعهود مع المسلمين لا تُعد حنثًا ولا نقضًا.

وكان السلطان محمد الثاني قد كتب إلى والده يطلب منه العودة ليتربع على عرش السلطنة تحسبًا لوقوع معركة مع المجر، إلا أن مراد رفض هذا الطلب أثار هذا الرد غضب محمد الثاني فعاد وكتب إلى والده يقول: لو كنت أنت السلطان بحق، فارجع وسر بجيشك إلى المعركة وأن كنت تراني أنا السلطان، فإني آمرك بالمجيئ وقيادة جيشي في المعركة وبناءً على هذه الرسالة، عاد السلطان مراد الثاني وقاد الجيش العثماني في معركة فارنا، التي كان فيها النصر الحاسم للمسلمين بتاريخ ١٠ نوفمبر سنة ١٤٤٤ م، الموافق ٢٨ رجب سنة ٨٤٨ هـ.

يُقال أن عودة السلطان مراد الثاني إلى الحكم كان سببها أيضاً الضغط الذي مارسه عليه الصدر الأعظم خليل باشا، الذي لم يكن مرتاحاً لحكم محمد الثاني، لأن الأخير كان متأثرًا بمعلمه المولى الكوراني ويتخذ منه قدوة، وكان الكوراني على خلاف مع الباشا وانتقل السلطان محمد الثاني إلى مانيسا الواقعة فى غرب الأناضول بعد ثورة الإنكشارية عليه، وبعد أن جمعهم والده وانتقل لخوض حروبه في أوروبا وليس هناك من معلومات كثيرة تفيد بالذي قام به السلطان محمد في الفترة التي قضاها في مدينة مانيسا، ولكن يُعرف أنه خلال هذه الفترة، تزوج السلطان

بوالدة ولي العهد، كما كان يُطلق على زوجات السلاطين، أمينة جلبهار ذات الجذور اليونانية النبيلة، من قرية دوفيرا في طرابزون، التي توفيت بعد ذلك عام ١٤٩٢ بعد أن أنجبت السلطان بايزيد الثاني وكان السلطان مراد الثاني قد عاد إلى عزلته مرة أخرى بعد أن انتصر على المجر واستخلص مدينة فارنا منهم، لكنه لم يلبث فيها هذه المرة أيضاً، لأن عساكر الإنكشارية ازدروا ملكهم الفتى محمد الثاني وعصوه ونهبوا مدينة أدرنة عاصمة الدولة، فرجع إليهم السلطان مراد الثاني في أوائل سنة ١٤٤٥ وأخمد فتنتهم وخوفا من رجوعهم إلى إقلاق راحة الدولة، أراد أن يشغلهم بالحرب، فأغار على بلاد اليونان والصرب طيلة سنواته الباقية، وفتح عدداً من المدن والإمارات وضمها إلى الدولة العثمانية وتزوج السلطان محمد في هذه الفترة أيضاً بزوجته الثانية ستّي مكرم خاتون الأميرة من سلالة ذي القدر التركمانية.

قام محمد الفاتح خلال المدة التي قضاها في مانيسا، بضرب النقود السلجوقية باسمه، وفي أغسطس أو سبتمبر من عام ١٤٤٩، توفيت والدته، وبعد هذا بسنة، أي في عام ١٤٥٠، أبرم والده صلحاً مع اسكندر بك، أحد أولاد جورج كستريو أمير ألبانيا الشمالية الذين كان السلطان مراد الثاني قد أخذهم رهائن وضمّ بلاد أبيهم إليه بعد موته وكان اسكندر المذكور قد أسلم، أو بالأحرى تظاهر بالإسلام لنوال ما يكنه صدره وأظهر

الإخلاص للسلطان حتى قرّبه إليه، ثم انقلب عليه أثناء انشغاله بمحاربة الصرب والمجر، وبعد عدد من المعارك لم يستطع الجيش العثماني المنهك استرجاع أكثر من مدينتين ألبانيتين، فرأى السلطان مصالحة البك ريثما يعود ليستجمع جيشه قوته ثم يعود لفتح مدينة آق حصار.

اعتلاؤه العرش للمرة الثانية وفتح القسطنطينية

عاد السلطان مراد الثاني إلى أدرنة، عاصمة ممالكه ليُجهز جيوشاً جديدة كافية لقمع الثائر على الدولة، اسكندر بك، لكنه توفي يوم ٧ فبراير سنة ١٤٥١، الموافق ٥ محرم سنة ٨٥٥هـ وما أن وصلت أنباء وفاة السلطان إلى ابنه محمد الثاني، حتى ركب فوراً وعاد إلى أدرنة حيث توّج سلطاناً للمرة الثانية في ١٩ فبراير من نفس العام، وأقام جنازة لوالده الراحل وأمر بنقل الجثمان إلى مدينة بورصة لدفنه بها، ثمّ أمر بقتل أخ له رضيع اسمه أحمد، وبإرجاع الأميرة مارا الصربية إلى والدها، أمير الصرب المدعو جورج برنكوفيتش، الذي زوّجها للسلطان مراد الثاني عندما أبرم معه معاهدة سلام قرابة عام ١٤٢٨.

وعندما تولى محمد الثاني الملك بعد أبيه لم يكن بآسيا الصغرى خارجًا عن سلطانه إلا جزء من بلاد القرمان ومدينة سينوب ومملكة طرابزون الروميّة وصارت مملكة الروم الشرقية قاصرة على مدينة القسطنطينية

وضواحيها وكان إقليم موره مجزءاً بين البنادقة وعدّة إمارات صغيرة يحكمها بعض أعيان الروم أو الإفرنج الذين تخلفوا عن إخوانهم بعد انتهاء الحروب الصليبية، وبلاد الأرنؤد وإيبيروس في حمى إسكندر بك سالف الذكر، وبلاد البشناق المستقلة، والصرب التابعة للدولة العثمانية تبعية سيادية، وما بقي من شبه جزيرة البلقان كان داخلاً تحت سلطة الدولة كذلك.

أخذ السلطان محمد الثاني، بعد وفاة والده، يستعد لاتمام فتح ما بقي من بلاد البلقان ومدينة القسطنطينية حتى تكون جميع أملاكه متصلة لا يتخللها عدو مهاجم أو صديق منافق، فبذل بداية الأمر جهودًا عظيمة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون جندي، وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة، كما عني عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة التي تؤهلهم للغزو الكبير المنتظر، كما أعتنى الفاتح بإعدادهم إعدادًا معنويًا قويًا وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء النبي محمد ص على الجيش الذي يفتح القسطنطينية وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير، كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير في تقوية عزائمهم.

أراد السلطان، قبل أن يتعرض لفتح القسطنطينية أن يُحصّن مضيق البوسفور حتى لا يأتي لها مدد من مملكة طرابزون، وذلك بأن يُقيم قلعة على شاطئ المضيق في أضيق نقطة من الجانب الأوروبي منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي ولمّا بلغ إمبراطور الروم هذا الخبر أرسل إلى السلطان سفيرًا يعرض عليه دفع الجزية التي يُقررها، فرفض الفاتح طلبه وأصر على البناء لما يعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة، وصل ارتفاعها إلى ٨٢ مترًا، وأطلق عليها اسم قلعة روملي حصار، وأصبحت القلعتان متقابلتين، ولا يفصل بينهما سوى ٦٦٠ متراً، تتحكمان في عبور السفن من شرقي البوسفور إلى غربه وتستطيع نيران مدافعهما منع أية سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة طرابزون وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة كما فرض السلطان رسوماً على كل سفينة تمر في مجال المدافع العثمانية المنصوبة في القلعة، وذات مرة رفضت إحدى سفن البندقية أن تتوقف بعد أن أعطى العثمانيون لها عدداً من الإشارات، فتمّ إغراقها بطلقة مدفعية واحدة فقط.

اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية ، ومن أهمها المدافع، التي أخذت اهتماماً خاصاً منه حيث أحضر مهندسًا

مجريًا يدعى أوربان كان بارعاً في صناعة المدافع، فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية فتمكن هذا المهندس من تصميم وتصنيع العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور، الذي ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها.

ويُضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثماني؛ حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينة البحرية التي لا يكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة وقد ذُكر أن السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمائة سفينة، بينما قال آخرون أن هذا الرقم مبالغ فيه وأن عدد السفن كان أقل من ذلك، حيث بلغت مائة وثمانين سفينة في الواقع.

عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة جلطة المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق القرن الذهبي، كما عقد معاهدات مع جنوة والبندقية وهما من الإمارات الأوروبية المجاورة، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على

القسطنطينية، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن المدينة.

في هذه الأثناء التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح، استمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره، ولكن السلطان كان عازماً على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه، ولما رأى الإمبراطور البيزنطي شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوروبية وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداء شديد، وقد اضطر الإمبراطور لمجاملة البابا بأن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية، خطب في كنيسة آيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين، مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك، حتى قال بعض زعماء

الأرثوذكس: إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية.

سعى السلطان، بعد كل هذه الاستعدادات، لإيجاد سبب لفتح باب الحرب، ولم يلبث أن وجد هذا السبب بتعدي الجنود العثمانيين على بعض قرى الروم ودفاع هؤلاء عن أنفسهم، فقتل البعض من الفريقين فعمل السلطان على تمهيد الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية، في شهرين حيث تمت حمايتها بقسم من الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية يوم الخميس ٦ أبريل، ١٤٥٣ م، الموافق ٢٦ ربيع الأول، ٨٥٧ هـ، فجمع الجند وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألفاً جندي أي ربع مليون، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذكّرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز للإسلام والمسلمين، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء.

وبهذا ضرب السلطان الحصار على المدينة بجنوده من ناحية البر، وبأسطوله من ناحية البحر، وأقام حول المدينة أربع عشرة بطارية

مدفعية وضع بها المدافع الجسيمة التي صنعها أوربان والتي قيل أنها كانت تقذف كرات من الحجارة زنة كل واحدة منها اثنا عشر قنطارا إلى مسافة ميل، إلا أن المؤرخين المعاصرين يقولون ان هذا الرقم مبالغ فيه بوضوح، فإنه ولو وُجد في ذلك الزمان آلة تستطيع أن تقذف هذا الوزن الكبير، فإنه لا يوجد أناس قادرين على رفع هذا الوزن ليضعوه في المدفع، فالقنطار يساوي ٢٥٠ كيلوجراما، فوزن القذيفة على هذا الاعتبار يكون ٣٠٠٠ كيلوجراما، وبالتالي فلعلّ المقصود كان ١٢ رطلا وليس قنطارا وفي أثناء الحصار اكتُشف قبر أبي أيوب الأنصاري الذي استشهد حين حاصر القسطنطينية في سنة ٥٢ هـ في خلافة معاوية بن أبي سفيان الأموي.

وفي هذا الوقت كان البيزنطيين قد قاموا بسد مداخل ميناء القسطنطينية بسلاسل حديدية غليظة حالت بين السفن العثمانية والوصول إلى القرن الذهبي، بل دمرت كل سفينة حاولت الدنو والاقتراب إلا أن الأسطول العثماني نجح على الرغم من ذلك في الاستيلاء على جزر الأمراء في بحر مرمرة واستنجد الإمبراطور قسطنطين، آخر ملوك الروم، بأوروبا، فلبّى طلبه أهالي جنوة وأرسلوا له إمدادات من خمس سفن يقودها القائد الجنوي جوستنياني يُرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من دول أوروبية متعددة، فأتى هذا القائد بمراكبه وأراد الدخول إلى ميناء

القسطنطينية، فاعترضته السفن العثمانية ونشبت بينهما معركة هائلة يوم ٢١ أبريل، ١٤٥٣ م، الموافق يوم ١١ ربيع الثاني، ٨٥٧ هـ، وانتهت بفوز جوستنياني ودخوله الميناء بعد أن رفع المحاصرون السلاسل الحديدية ثم أعادوها بعد مرور السفن الأوروبية كما كانت فحاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلاسل الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية، فارتفعت بهذا الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة بعد هذا الأمر، أخذ السلطان يُفكر في طريقة لدخول مراكبه إلى الميناء لإتمام الحصار برّاً وبحراً، فخطر بباله فكرة غريبة، وهى أن ينقل المراكب على البر ليجتازوا السلاسل الموضوعة لمنعها، وتمّ هذا الأمر الغريب بأن مهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتي بألواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، وبهذه الكيفية أمكن نقل نحو سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من البيزنطيين.

استيقظ أهل المدينة صباح يوم ٢٢ أبريل وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين، ولقد عبّر أحد

المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال: ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الأسكندر الأكبر وأيقن المحاصرون عند هذا أن لا مناص من نصر العثمانيين عليهم، لكن لم تخمد عزائمهم بل ازدادوا إقداماً وصمموا على الدفاع عن مدينتهم حتى الموت وفي يوم ٢٤ مايو سنة ١٤٥٣م، الموافق ١٥ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ، أرسل السلطان محمد إلى الإمبراطور قسطنطين رسالة دعاه فيها إلى تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة إلى حيث يشاؤون بأمان، وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولا يتعرضوا لأي أذى وأعطاهم الخيار بالبقاء في المدينة أو الرحيل عنها، ولما وصلت الرسالة إلى الإمبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر، فمال بعضهم إلى التسليم وأصر آخرون على استمرار الدفاع عن المدينة حتى الموت، فمال الامبراطور إلى رأي القائلين بالقتال حتى آخر لحظة، فرد الامبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلى السلم وأنه يرضى أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه أو يُدفن تحت أسوارها، فلما وصلت الرسالة إلى

الفاتح قال: حسناً عن قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر.

عند الساعة الواحدة صباحاً من يوم الثلاثاء ٢٩ مايو، ١٤٥٣م، الموافق ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ بدأ الهجوم العام على المدينة، فهجم مائة وخمسون ألف جندي وتسلقوا الأسوار حتى دخلوا المدينة من كل فج وأعملوا السيف فيمن عارضهم واحتلوا المدينة شيئًا فشيئًا إلى أن سقطت بأيديهم، بعد ٥٣ يوماً من الحصار أما الإمبراطور قسطنطين فقاتل حتى مات وهو يدافع عن وطنه كما وعد، ولم يهرب أو يتخاذل ثم دخل السلطان المدينة عند الظهر فوجد الجنود مشغولة بالسلب والنهب وغيره، فأصدر أمره بمنع كل اعتداء، فساد الأمن حالاً ثم توجه إلى كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع فيها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، وعندما اقترب من أبوابها خاف المسيحيون داخلها خوفاً عظيماً، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، فاطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بأن يؤذن في الكنيسة بالصلاة إعلانًا بجعلها مسجدًا وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية واختيار رؤسائهم الدينين

الذين لهم حق الحكم والنظرفي القضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع ثم قام بجمع رجال الدين المسيحيين لينتخبوا بطريركا لهم، فاختاروا جورجيوس كورتيسيوس سكولاريوس وأعطاهم نصف الكنائس الموجودة في المدينة، أما النصف الأخر فجعله جوامع للمسلمين وبتمام فتح المدينة، نقل السلطان محمد مركز العاصمة إليها، وسُميت إسلامبول، أي تخت الإسلام أومدينة الإسلام.

بعد تمام النصر والفتح، اتخذ السلطان لقب الفاتح وقيصر الروم على الرغم من أن هذا اللقب الأخير لم تعترف به بطريركيّة القسطنطينية ولا أوروبا المسيحية وكان السبب الذي جعل السلطان يتخذ هذا اللقب هو أن القسطنطينية كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية، بعد أن نُقل مركز الحكم إليها عام ٣٣٠ بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، وكونه هو سلطان المدينة فكان من حقه أن يحمل هذا اللقب وكان للسلطان رابطة دم بالأسرة الملكية البيزنطية، وبما أن كثيراً من أسلافه، كالسلطان أورخان الأول، تزوجوا بأميرات بيزنطيات ولم يكن السلطان هو الوحيد الذي حمل لقب القيصر في أيامه، إذ أن إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة في أوروبا الغربية، فريدريش الثالث، قال آنذاك بأنه ينحدر مباشرة من شارلمان، الذي حصل على لقب قيصر عندما توّجه البابا ليو

الثالث عام ٨٠٠ على الرغم من عدم اعتراف الإمبراطورية البيزنطية بهذا الأمر عندئذ.

كان السلطان قد أمر بحبس الصدر الأعظم خليل باشا، الذي اتهم أثناء حصار القسطنطينية بالتعامل مع العدو وتلقيه رشوة منهم لفضح تحركات الجيش العثماني، فحُبس لمدة أربعين يوماً وسُملت عيناه، ثم حُكم عليه بالإعدام فأعدم وتنادى البيزنطيين إلى نبذ الخلافات والحزازات والاتحاد ضد العثمانيين وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثراً بنبأ سقوط القسطنطينية، وعمل جهده وصرف وقته في توحيد الدول الإيطالية وتشجيعها على قتال المسلمين، وترأس مؤتمرًا عُقد في روما، أعلنت فيه الدول المشاركة عزمها على التعاون فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقوتها ضد العدو المشترك وأوشك هذا الحلف أن يتحقق إلا أن الموت عاجل البابا في ٢٥ مارس سنة ١٤٥٥، فلم تتم أي من هذه الخطط.

بعد إتمامه لترتيباته وبناء ما هُدم من أسوار القسطنطينية وتحصينها، أمر السلطان ببناء مسجد بالقرب من قبر أبي أيوب الأنصاري، جرت العادة فيما بعد أن يتقلد كل سلطان جديد سيف عثمان الغازي الأول في هذا المسجد، ثم سافر بجنوده لفتح بلاد جديدة، فقصد بلاد موره، لكن لم ينتظر أميراها دمتريوس وتوماس، أخوا قسطنطين، قدومه، بل أرسلا إليه يُخبرانه بقبولهما دفع جزية سنوية قدرها إثنا عشر ألف دوكا فقبل

السلطان ذلك، وغيّر وجهته قاصدًا بلاد الصرب، فأتى هونيدوارا الشجاع المجري، الملقب بالفارس الأبيض وردّ عن الصرب مقدمة الجيوش العثمانية، إلا أن الصرب لم يرغبوا في مساعدة المجر لهم لاختلاف مذهبهم، حيث كان المجر كاثوليكيين تابعين لبابا روما، والصرب أرثوذكسيين لا يذعنون لسلطة البابا بل كانوا يفضلون تسلط المسلمين عليهم لما رأوه من عدم تعرضهم للدين مطلقًا ولذلك أبرم أمير الصرب الصلح مع السلطان محمد الثاني على أن يدفع له سنويًا ثمانين ألف دوكا، وذلك في سنة ١٤٥٤.

وفي السنة التالية أعاد السلطان الكرّة على الصرب من جديد، بجيش مؤلف من خمسين ألف مقاتل وثلاثمائة مدفع، ومر بجيوشه من جنوب تلك البلاد إلى شمالها بدون أن يلقى أقل معارضة حتى وصل مدينة بلجراد الواقعة على نهر الدانوب وحاصرها من جهة البر والنهر وكان هونيدوارا المجري دخل المدينة قبل إتمام الحصار عليها ودافع عنها دفاع الأبطال حتى يئس السلطان من فتحها ورفع عنها الحصار سنة ١٤٥٥ لكن وإن لم يتمكن العثمانيون من فتح عاصمة الصرب إلا أنهم أصابوا هونيدوارا بجراح بليغة توفي بسببها بعد رفع الحصار عن المدينة بنحو عشرين يومًا ولما علم السلطان بموته أرسل الصدر الأعظم

محمود باشا لإتمام فتح بلاد الصرب فأتمّ فتحها من سنة ١٤٥٨ إلى سنة ١٤٦٠.

وفي هذه الأثناء تمّ فتح بلاد موره ففي سنة ١٤٥٨ فتح السلطان مدينة كورنته وما جاورها من بلاد اليونان حتى جرّد توماس باليولوج أخا قسطنطين من جميع بلاده ولم يترك إقليم موره لأخيه دمتريوس إلا بشرط دفع الجزية وبمجرّد ان رجع السلطان بجيوشه ثار توماس وحارب الأتراك وأخاه معاً، فاستنجد دمتريوس بالسلطان فرجع بجيش عرمرم ولم يعد حتى تمّ فتح إقليم موره سنة ١٤٦٠ فهرب توماس إلى إيطاليا، ونُفي دمتريوس في إحدى جزر الأرخبيل وفي ذلك الوقت فُتحت جزر تاسوس والبروس وغيرها من جزر بحر الروم.

توحيد الأناضول

وبعد عودة السلطان من بلاد اليونان أبرم صلحاً مع إسكندر بك وترك له إقليما ألبانيا وإيبيروس، ثم حوّل أنظاره إلى آسيا الصغرى ليفتح ما بقي منها، فسار بجيشه دون أن يُعلم أحدًا بوجهته في أوائل سنة ١٤٦١، فهاجم أولاً ميناء بلدة أماستريس، وكانت مركز تجارة أهالي جنوة النازلين بهذه الأصقاع ولكون سكانها تجّاراً يُحافظون على أموالهم ولا يهمهم دين أو جنسية متبوعهم ما دام غير متعرّض لأموالهم ولا

أرواحهم، وفتحوا أبواب المدينة ودخلها العثمانيون بغير حرب ثم أرسل إلى اسفنديار أمير مدينة سينوب يطلب منه تسليم بلده والخضوع له ولأجل تعزيز هذا الطلب أرسل أحد قوّاده ومعه عدد عظيم من المراكب لحصار الميناء، فسلمها إليه الأمير وأقطعه السلطان أراض واسعة بأقليم بيثينيا لخضوعه ثم قصد بنفسه مدينة طرابزون ودخلها دون مقاومة شديدة وقبض على الملك وأولاده وزوجته وأرسلهم إلى القسطنطينية.

محاربة أمير الفلاخ

ما ان عاد السلطان إلى القسطنطينية حتى جهز جيشا لمحاربة أمير الفلاخ المدعو فلاد دراكول الثالث المخوزق، لمعاقبته على ما ارتكبه من الفظائع مع أهالي بلاده والتعدّي على التجار العثمانيين النازلين بها فلمّا قرب منها، أرسل إليه هذا الأمير وفداً يعرض على السلطان دفع جزية سنوية قدرها عشرة آلاف دوكاً بشرط أن يُصادق على جميع الشروط الواردة بالمعاهدة التي أبرمت في سنة ١٣٩٣ بين أمير الفلاخ آنذاك والسلطان بايزيد الأول، فقبل السلطان محمد الثاني هذا الاقتراح وعاد بجيوشه ولم يقصد أمير الفلاخ بهذه المعاهدة إلا التمكن من الاتحاد مع ملك المجر متياس كورفينوس ومحاربة العثمانيين فلمّا علم السلطان باتحادهما أرسل إليه مندوبين يسألانه عن الحقيقة، فقبض عليهما وقتلهما بوضعهما على عمود محدد من الخشب، يُعرف بالخازوق وأغار

بعدها على بلاد بلغاريا التابعة للدولة العثمانية وعاث فيها فسادًا، ورجع بخمسة وعشرين ألف أسير، فأرسل إليه السلطان رسلاً يدعونه إلى الطاعة وإخلاء سبيل الأسرى، فلمّا مثل الرسل أمامه أمرهم برفع عمائمهم لتعظيمه، وعند إبائهم طلبه لمخالفته لعوائدهم، أمر بأن تُسمّر عمائمهم على رؤسهم بمسامير من حديد.

فلمّا وصلت هذه الأخبار إلى السلطان محمد استشاط غضباً وسار على الفور بحوالي ٦٠,٠٠٠ جندي نظامي و٣٠,٠٠٠ غير نظامي، فوصل بسرعة إلى مدينة بوخارست، عاصمة الأمير، فهزمه وفرّق جيوشه، لكنه لم يتمكن من القبض عليه لمجازاته على ما اقترفه فى حق العثمانيين والبلغار، لهروبه والتجائه إلى ملك المجر، فنادى السلطان بعزله ونصب مكانه أخاه راؤول لثقته به بما أنه تربّى في حضانة السلطان منذ نعومة أظفاره، وبذا ضُمّت بلاد الفلاخ إلى الدولة العثمانية ويُقال أنه عند وصول السلطان محمد إلى ضواحي بوخارست، وجد حول المدينة غابة من الخوازيق التي عُلّقت عليها جثث الأسرى الذين أتى بهم أمير الفلاخ من بلغاريا، وقتلهم عن آخرهم بما فيهم الأطفال والنساء، وكذلك الجنود العثمانيين الذين كان قد قبض عليهم إثر مناوشة ليلية، وكان عددهم جميعا عشرين ألفاً.

فتح البوسنة والعداء مع البندقية

في سنة ١٤٦٢، حارب السلطان بلاد البوسنة لامتناع أميرها استيفان توماسفيتش عن دفع الخراج، وأسره بعد معركة هو وولده وأمر بقتلهما، فدانت له جميع بلاد البشناق وأرسل فرمانا إلى الفرنسيسكان من سكان تلك البلاد يُطمئنهم بعدم تعرّض أي منهم للاضطهاد بسبب معتقداتهم الدينية، فقال:أنا السلطان محمد خان الفاتح،أعلن للعالم أجمع أن أهل البوسنة الفرنسيسكان قد مُنحوا بموجب هذا الفرمان السلطاني حماية جلالتي ونحن نأمر بأن لا يتعرض أحد لهؤلاء الناس ولا لكنائسهم وصلبهم وبأنهم سيعيشون بسلام في دولتي وبأن أولئك الذين أصبحوا مهاجرين منهم، سيحظون بالأمان والحرية وسيُسمح لهم بالعودة إلى أديرتهم الواقعة ضمن حدود دولتنا العليّة.

لا أحد من دولتنا سواء كان نبيلاً، وزيرا، رجل دين، أو من خدمنا سيتعرض لهم في شرفهم وفي أنفسهم لا أحد يهدد، أو يتعرض لهؤلاء الناس في أنفسهم، ممتلكاتهم، وكنائسهم وسيحظى كل ما أحضروه معهم من متاع من بلادهم بنفس الحماية، وبإعلان هذا الفرمان، أقسم بالله العظيم الذي خلق الأرض في ستة أيام ورفع السماء بلا عمد، وبسيدنا محمد عبده ورسوله، وجميع الأنبياء والصالحين رضوان الله عليهم أجمعين، بأنه؛ لن نسمح بأن يُخالف أي من أفراد رعيتنا أمر هذا الفرمان وفي سنة ١٤٦٤، أراد متياس كورفينوس ملك المجر استخلاص

البوسنة من العثمانيين، فهُزم بعد أن قُتل معظم جيشه، وكانت عاقبة تدخله أن جُعلت البوسنة ولاية كباقي ولايات الدولة، وسُلبت ما كان مُنح لها من الامتيازات، ودخل في جيش الإنكشارية ثلاثون ألفاً من شبانها وأسلم أغلب أشراف أهاليها.

وكانت قد ابتدأت حركات العدوان في سنة ١٤٦٣ بين العثمانيين والبنادقة بسبب هروب أحد الرقيق إلى كورون التابعة للبندقية، وامتناعهم عن تسليمه بحجة أنه اعتنق المسيحية دينًا فاتخذ العثمانيون ذلك سببًا للاستيلاء على مدينة آرجوس وغيرها فاستنجد البنادقة بحكومتهم، فأرسلت إليهم عدداً من السفن محملة بالجنود، وأنزلتهم إلى بلاد موره، فثار سكانها وقاتلوا الجنود العثمانيين المحافظين على بلادهم وأقاموا ما كان قد تهدم من سور برزخ كورون لمنع وصول المدد من الدولة العثمانية، وحاصروا المدينة نفسها واستخلصوا مدينة آرجوس من الأتراك لكن لما علموا بقدوم السلطان مع جيش يبلغ عدده ثمانين ألف مقاتل، تركوا البرزخ راجعين على أعقابهم، فدخل العثمانيون بلاد موره بدون معارضة كبيرة واسترجعوا كل ما أخذوه وأرجعوا السكينة إلى البلاد وفي السنة التالية أعاد البنادقة الكرّة على بلاد موره دون فائدة.

وبعد ذلك حاول البابا بيوس الثاني بكل ما أوتي من مهارة وقدرة سياسية تركيز جهوده في ناحيتين اثنتين حاول أولاً أن يقنع الأتراك باعتناق الدين المسيحي، ولم يقم بإرسال بعثات تبشير لذلك الغرض وانما اقتصر على إرسال خطاب إلى السلطان محمد الفاتح يطلب منه أن يعتنق المسيحية، كما اعتنقها قبله قسطنطين وكلوفيس ووعده بأنه سيكفر عنه خطاياه إن هو اعتنق المسيحية مخلصاً، ووعده بمنحه بركته واحتضانه ومنحه صكاً بدخول الجنة ولما فشل البابا في خطته هذه لجأ إلى الخطة الثانية، خطة التهديد والوعيد واستعمال القوة، فحاول تأجيج الحقد الصليبي في نفوس النصارى شعوبًا وملوكاً، قادة وجنودًا، واستعدت بعض الدول لتحقيق فكرة البابا الهادفة للقضاء على العثمانيين، ولكن لما حان وقت النفير اعتذرت دول أوروبا بسبب متاعبها الداخلية المختلفة وعالج المنون البابا بعد هذا بفترة قصيرة، إلا أن تحريضاته كانت قد أثرت في إسكندر بك الألباني، فحارب الجنود العثمانيين وحدثت بينهما عدّة وقائع أريقت فيها الدماء، وكانت الحرب فيها سجالاً وفي سنة ١٤٦٧ توفي إسكندر بك بعد أن حارب الدولة العثمانية ٢٥ سنة دون أن تتمكن من قمعه.

ثمّ بعد هدنة استمرت سنة واحدة، عادت الحروب بين العثمانيين والبنادقة وكانت نتيجتها أن فتح العثمانيون جزيرة نجربونت، وتُسمى في

كتب الترك أجريبوس، وتُعرف حاليًا باسم إيبويا، وهي مركز مستعمرات البنادقة في جزر الروم، وتمّ فتحها في سنة ١٤٧٠.

وبعد أن ساد الأمن في أنحاء أوروبا، حوّل السلطان أنظاره إلى بلاد القرمان بآسيا الصغرى ووجد سبيلاً سهلاً للتدخل، وهو أن أميرها المدعو إبراهيم أوصى بعد موته بالحكم إلى أحد أولاده واسمه الأمير إسحق، ولكونه كان لديه إخوة لأب أكبر منه سناً، يرغب كل منهم فى الحكم ، تدخل السلطان محمد الثاني وحارب إسحق وهزمه وولى محله أكبر إخوته، وعاد إلى أوروبا لمحاربة اسكندر بك، الذي كان ما زال على قيد الحياة آنذاك، فانتهز الأمير إسحق غياب السلطان وعاود الكرّة على قونية، عاصمة القرمان، لاسترداد ما أوصى به إليه أبوه من البلاد، فرجع إليه السلطان وقهره وليستريح باله من هذه الجهة أيضاً، ضمّ إمارة قرمان إلى بلاده وغضب على وزيره محمود باشا الذي عارضه في هذا الأمر.

وبعد ذلك بقليل زحف أوزون حسن، سلطان دولة الخروف الأبيض وهو أحد خلفاء تيمورلنك، الذي كان سلطانه ممتدا على كافة البلاد والأقاليم الواقعة بين نهري أمودريا والفرات، وفتح مدينة توقات عنوة ونهب أهلها فأخذ السلطان في تجهيز جيش جرّار وأرسل لأولاده داوود باشا بكلر بك الأناضول، ومصطفى باشا حاكم القرمان، يأمرهما بالمسير

لمحاربة العدوّ، فسارا بجيوشهما إليه وقابلا جيش أوزون حسن على حدود إقليم الحميد، وهزماه شر هزيمة في معركة بالقرب من مدينة إرزينجان سنة ١٤٧١ وبعدها، في أواخر صيف عام ١٤٧٣، سار إليه السلطان نفسه ومعه مائة ألف جندي وأجهز على ما بقي معه من الجنود بالقرب من مدينة گنجه، ولم يعد أوزون حسن لمحاربة الدولة العثمانية بعد ذلك، إذ أن هذه المعركة كانت قد قضت على سلطة دولته، ولم يعد للعثمانيين من عدو لجهة الشرق، حتى بروز الشاه إسماعيل الصفوي والدولة الصفوية في وقت لاحق وفي هذه الأثناء كانت الحرب متقطعة بين العثمانيين والبنادقة الذين استعانوا ببابا روما وأمير نابولي، وكان النصر فيها دائماً للعثمانيين، ولم يتمكن البنادقة من استرجاع شيء مما أخذ منهم.

محاربة البغدان وإنهاء الصراع مع البنادقة

في سنة ١٤٧٥ أراد السلطان فتح بلاد البغدان، وهي المنطقة الشرقية من رومانيا المتاخمة لحدود روسيا والمعروفة أيضاً باسم مولدوفا، فأرسل إليها جيشاً بعد أن عرض دفع الجزية على أميرها المسمى استيفان الرابع ولم يقبل ووقعت معركة عنيفة بين الطرفين بتاريخ ١٠ يناير من نفس العام عُرفت بمعركة فاسلوي، كنية بالمدينة القريبة من الموقع ووصل عدد الجنود العثمانيين إلى ١٢٠,٠٠٠ جندي، بينما بلغ

عدد الجنود البغدان ٤٠,٠٠٠ جندي، بالإضافة إلى بعض القوات المتحالفة الأصغر حجما وبعض المرتزقة وبعد قتال عنيف قُتل فيه جنود كثر من الجيشين المتحاربين، انهزم الجيش العثماني وعاد دون فتح شيء من هذا الإقليم ويذكر المؤرخون أن استيفان الرابع قال أن هذه الهزيمة التي لحقت بالعثمانيين هي أعظم هزيمة حققها الصليب على الإسلام وقالت الأميرة مارا التي كانت زوجة للسلطان مراد الثاني، والد الفاتح، سابقاً، لمبعوث بندقي أن هذه الهزيمة هي أفظع الهزائم التي تعرّض لها العثمانيون في التاريخ وبذلك اشتهر استيفان الرابع أمير البغدان بمقاومة العثمانيين، فخلع عليه البابا سيكستوس الرابع لقب بطل المسيح والحامي الحقيقي للديانة المسيحية

ولما بلغ خبر هذه الهزيمة آذان السلطان عزم على فتح بلاد القرم حتى يستعين بفرسانها المشهورين في القتال على محاربة البغدان وكان لجمهورية جنوة مستعمرة في شبه جزيرة القرم، في مدينة كافا، فأرسل السلطان إليها أسطولاً بحريّا، ففتحها بعد حصار ستة أيام، وبعدها سقطت جميع الأماكن التابعة لجمهورية جنوة وصارت جميع شواطئ القرم تابعة للدولة العثمانية ولم يُقاومها التتار النازلون بها، لذلك اكتفى السلطان بفرض الجزية عليها وبعد ذلك فتح الأسطول العثماني ميناء آق كرمان، ومنها أقلعت السفن الحربية إلى مصاب نهر الدانوب لإعادة الكرّة على بلاد البغدان،

بينما كان السلطان يجتاز نهر الدانوب من جهة البر بجيش عظيم، فتقهقر أمامه جيش البغدان، على الرغم من صدّه لعدّة هجمات عثمانية بنيرانه، لعدم إمكانية المحاربة في السهول، وتبعه الجيش العثماني حتى إذا أوغل خلفه في غابة كثيفة يجهل مفاوزها، انقض عليه الجيش البغداني، فاشتبك مع قوات الإنكشارية التي هزمته شر هزيمة، في معركة أطلق عليها اسم معركة الوادي الأبيض فانسحب استيفان الرابع إلى أقصى شمال غرب بلاده، والبعض يقول أنه لجأ إلى مملكة بولندا، حيث أخذ يجمع جيشاً جديداً ولم يستطع السلطان محمد فتح الحصون الرئيسية البغدانيه بسبب المناوشات الصغيرة المستمرة التي تعرض لها الجيش العثماني من قبل جنود البغدان، وانتشار المجاعة ثم الطاعون بين أفراد الجيش، مما اضطر السلطان لأن يسحب قواته ويعود إلى القسطنطينية دون فتح البلاد.

وفي سنة ١٤٧٧ أغار السلطان على بلاد البنادقة ووصل إلى إقليم فريولي بعد أن مرّ بإقليميّ كرواتيا ودالماسيا، فخاف البنادقة على مدينتهم الأصلية وأبرموا الصلح معه تاركين له مدينة كرويا، التي كانت عاصمة اسكندر بك الشهير، فاحتلها السلطان ثم طلب منهم مدينة إشقودره، ولمّا رفضوا التنازل عنها إليه حاصرها وأطلق عليها مدافعه ستة أسابيع متوالية بدون أن يُضعف قوّة سكانها وشجاعتهم، فتركها

لفرصة أخرى وفتح ما كان حولها من البلاد والقلاع حتى صارت مدينة إشقودره منفصلة كليّا عن باقي بلاد البنادقة، وكان لا بد من فتحها بعد قليل لعدم إمكان وصول المدد إليها، ولذا فضّل البنادقة أن يبرموا صلحاً جديداً مع السلطان ويتنازلوا عن إشقودره مقابل بعض الامتيازات التجارية وتمّ الصلح بين الفريقين على ذلك وأمضيت به بينهما معاهدة يوم ٢٨ يناير سنة ١٤٧٩م، الموافق ٥ ذو القعدة سنة ٨٨٣هـ، وكانت هذه أول خطوة خطتها الدولة العثمانية للتدخل في شؤون أوروبا، إذ كانت جمهورية البندقية حينذاك أهم دول أوروبا لاسيما في التجارة البحرية، وما كان يُعادلها في ذلك إلا جمهورية جنوة.

فتح جزر اليونان ومدينة أوترانت وحصار رودس

بعد أن تم الصلح مع البنادقة، وُجهت الجيوش إلى بلاد المجر لفتح إقليم ترانسلفانيا، فقهرها كينيس كونت مدينة تمسوار بالقرب من مدينة كرلسبرج في ١٣ أكتوبر سنة ١٤٧٦، وقُتل في هذه الموقعة كثير من العثمانيين وارتكب المجر فظائع وحشية بعد الانتصار، فقتلوا جميع الأسرى ونصبوا موائدهم على جثثهم وفي سنة ١٤٨٠ فُتحت جزر اليونان الواقعة بين بلاد اليونان وإيطاليا، وبعدها سار أمير البحر كدك أحمد باشا بمراكبه لفتح مدينة أوترانت بجنوب إيطاليا، التي كان عزم السلطان على فتحها جميعها ويُقال أنه أقسم بأن يربط حصانه في كنيسة

القديس بطرس بمدينة روما، مقر البابا، ففُتحت مدينة أوترانت عنوة يوم ١١ أغسطس سنة ١٤٨٠م، ٤ جمادى الثاني سنة ٨٨٥هـ.

وفي هذه الأثناء كان قد أرسل أسطولاً بحرياً آخر لفتح جزيرة رودس، التي كانت مركز رهبنة القديس يوحنا الأورشليمي، وكان رئيسها آنذاك بيير دو بوسون الفرنسي الأصل، وكانت الحرب قائمة بينه وبين سلطان مصر وباي تونس، فاجتهد في إبرام الصلح معهما ليتفرغ لصدّ هجمات الجيوش العثمانية وكانت هذه الجزيرة محصنة تحصيناً منيعاً، وابتدأ العثمانيون حصارها في يوم ٢٣ مايو سنة ١٤٨٠م، ١٣ ربيع الأول سنة ٨٨٥هـ، وظلّت المدافع تقذف عليها القنابل الحجرية تهدّم أسوارها، لكن كان يُصلح سكانها في الليل كل ما تخربه المدافع في النهار، ولذلك استمر حصارها ثلاثة أشهر حاول العثمانيون خلالها الاستيلاء على أهم قلاعها، واسمها قلعة القديس نيقولا، بدون جدوى وفي يوم ٢٨ يوليو سنة ١٤٨٠م، ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٨٥هـ، أمر القائد العام بالهجوم على القلعة ودخولها من الفتحة التي فتحتها المدافع في أسوارها، فهجمت عليها الجيوش وقاوم المدافعون بكل بسالة وإقدام وبعد أخذ وردّ، تقهقر العثمانيون بعد أن قُتل وجُرح منهم كثيرون، ورفع الباقون عنها الحصار.

ترتيبات السلطان الداخلية

اهتمامه بالمدارس والمعاهد: كان محباً للعلم والعلماء، لذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته، وفاق أجداده في هذا المضمار، وبذل جهوداً كبيرة في نشر العلم وإنشاء دور التعليم، وأدخل بعض الإصلاحات في نظام التعليم وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها، وحرص على نشر المدارس والمعاهد في كافة المدن والقرى وأوقف عليها أوقاف عظيمة.

نظّم هذه المدارس ورتّبها على درجات ومراحل، ووضع لها المناهج، وحدد العلوم والمواد التي تُدرّس في كل مرحلة، ووضع لها نظام امتحانات دقيق للانتقال للمرحلة التي تليها، وكان ربما يحضر امتحانات الطلبة ويزور المدارس ولا يأنف من سماع الدروس التي يلقيها الأساتذة، ولا يبخل بالعطاء للنابغين من الأساتذة والطلبة، وجعل التعليم في كافة مدارس الدولة بالمجان، وكانت المواد التي تدرس في تلك المدارس التفسير والحديث والفقه الأدب والبلاغة وعلوم اللغة والهندسة، وأنشأ بجانب مسجده الذي بناه بالقسطنطينية ثمان مدارس على كل جانب من

جوانب المسجد يتوسطها صحن فسيح، وفيها يقضي الطالب المرحلة الأخيرة من دراسته، وألحقت بهذه المدارس مساكن الطلبة ينامون فيها ويأكلون طعامهم ووضعت لهم منحة مالية شهرية، وأنشأ بجانبها مكتبة خاصة وكان يُشترط في الرجل الذي يتولى أمانة هذه المكتبة أن يكون من أهل العلم والتقوى متبحراً في أسماء الكتب والمؤلفين، وكانت مناهج المدارس تتضمن نظام التخصص، فكان لعلوم النقل والعلوم النظرية قسم خاص وللعلوم التطبيقية قسم خاص أيضاً.

وقرّب العلماء ورفع قدرهم وشجعهم على العمل والإنتاج وبذل لهم الأموال ووسع لهم في العطايا والمنح والهدايا وكرّمهم غاية الإكرام، ولما هزم أوزون حسن، أمر السلطان بقتل جميع الأسرى إلا من كان من العلماء وأصحاب المعارف ليستفاد منهم وكان من مكانة الشيخ أحمد الكوراني أنه كان يخاطب السلطان باسمه ولا ينحني له، ولا يقبل يده بل يصافحه مصافحة، وكان لا يأتي إلى السلطان إلا إذا أرسل إليه، وكان يقول له: مطعمك حرام وملبسك حرام فعليك بالاحتياط وكذلك بالنسبة للشيخ آق شمس الدين الذي درّس للسلطان محمد الفاتح العلوم الأساسية في ذلك الزمن وهي القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه والعلوم الإسلامية واللغات العربية، والفارسية والتركية وكذلك في مجال العلوم العلمية من الرياضيات والفلك وتاريخ الحروب، وكان الشيخ آق ضمن

العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولى إمارة أماسيا ليتدرب على إدارة الولاية، وأصول الحكم واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير بأنه المقصود بالحديث النبوي لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش.

وكان الشيخ آق شمس الدين أول من ألقى خطبة الجمعة في مسجد آيا صوفيا وكان السلطان محمد الفاتح يحب شيخه شمس الدين حباً عظيماً، وكانت له مكانة كبيرة في نفسه وقد بين السلطان لمن حوله -بعد الفتح-: إنكم تروننني فرحا فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة إن فرحي يتمثل في وجود شيخ عزيز الجانب، في عهدي، هو مؤدبي الشيخ آق شمس الدين وعبّر السلطان عن مهابته لشيخه في حديث له مع وزيره محمود باشا، حيث قال: إن احترامي للشيخ آق شمس الدين، احترام غير اختياري إنني أشعر وأنا بجانبه بالرهبة.

وكان شاعراً مجيداً مهتماً بالأدب عامة والشعر خاصة، وكان يصاحب الشعراء ويصطفيهم، واستوزر الكثير منهم، وكان في بلاطه ثلاثون شاعراً يتناول كل منهم راتباً شهرياً قدره ألف درهم، وكان مع هذا ينكر على الشعراء التبذل والمجون ويعاقب من يخرج عن الآداب بالسجن أو يطرده من بلاده.

وأتقن اللغة اليونانية وست لغات أخرى عندما بلغ من العمر ٢١ عاماً، أي في السنة التي فتح فيها القسطنطينية، وأمر بنقل كثير من الآثار المكتوبة باليونانية واللاتينية والعربية والفارسية إلى اللغة التركية، ونقل إلى التركية كتاب التصريف في الطب للزهراوي، وعندما وجد كتاب بطليموس في الجغرافيا وخريطة له طلب من العالم الرومي جورج أميروتزوس وابنه أن يقوما بترجمته إلى العربية وإعادة رسم الخريطة باللغتين العربية واليونانية وكافأهما على هذا العمل بعطايا واسعة، وقام العلامة القوشجي بتأليف كتاب بالفارسية ونقله للعربية وأهداه للفاتح.

كما كان مهتماً باللغة العربية فقد طلب من المدرسين بالمدارس الثماني أن يجمعوا بين الكتب الستة في تدريسهم وبين علم اللغة كالصحاح ودعم الفاتح حركة الترجمة والتأليف لنشر المعارف بين رعاياه بالإكثار من نشر المكاتب العامة وأنشأ له في قصره خزانة خاصة احتوت على غرائب الكتب والعلوم، وكان بها اثنا عشر ألف مجلد عندما احترقت.

اهتمامه بالعمران والبناء والمستشفيات

كان السلطان محمد الفاتح مغرماً ببناء المعاهد والقصور والمستشفيات والخانات والحمامات والأسواق الكبيرة والحدائق العامة، وأدخل المياه

إلى المدينة بواسطة قناطر خاصة وشجع الوزراء وكبار رجال الدولة والأغنياء والأعيان على تشييد المباني وإنشاء الدكاكين والحمامات وغيرها من المباني التي تعطى المدن بهاء ورونقاً، واهتم بالعاصمة إسلامبول اهتماماً خاصاً، وكان حريصاً على أن يجعلها أجمل عواصم العالم وحاضرة العلوم والفنون.

كثر العمران في عهد الفاتح وانتشر، واهتم بدور الشفاء، ووضع لها نظاماً مثالياً في غاية الروعة والدقة والجمال، فقد كان يعهد بكل دار من هذه الدور إلى طبيب ثم زيد إلى اثنين من حذاق الأطباء من أي جنس كان، يعاونهما كحال وجراح وصيدلي وجماعة من الخدم والبوابين، ويشترط في جميع المشتغلين بالمستشفى أن يكونوا من ذوي القناعة والشفقة والإنسانية، ويجب على الأطباء أن يعودوا المرضى مرتين في اليوم، وأن لا تصرف الأدوية للمرضى إلا بعد التدقيق من إعدادها، وكان يشترط في طباخ المستشفى أن يكون عارفاً بطهي الأطعمة والأصناف التي توافق المرضى منها، وكان العلاج والأدوية في هذه المستشفيات بالمجان ويغشاها جميع الناس بدون تمييز بين أجناسهم وأديانهم.

ولعلّ أبرز أثار السلطان العمرانية هو قصر الباب العالي الذي أمر بالبدء ببنائه قرابة عقد الستينات من القرن الخامس عشر، إضافة إلى

مسجده الذي حمل اسمه، وآيا صوفيا بطبيعة الحال التي أمر بتحويلها من كنيسة إلى مسجد.

الاهتمام بالتجارة والصناعة

اهتم السلطان محمد الفاتح بالتجارة والصناعة وعمل على إنعاشهما بجميع الوسائل والعوامل والأسباب وكان العثمانيون على دراية واسعة بالأسواق العالمية، وبالطرق البحرية والبرية وطوروا الطرق القديمة، وأنشأوا جسور جديدة مما سهل حركة التجارة في جميع أجزاء الدولة، واضطرت الدول الأجنبية لمداهنة الدولة العثمانية ليمارس رعاياها حرفة التجارة في الموانئ المهمة العديدة في ظل الراية العثمانية وكان من أثر السياسة العامة للدولة في مجال التجارة والصناعة أن عم الرخاء وساد اليسر والرفاهية في جميع أرجاء الدولة، وأصبحت للدولة عملتها الذهبية المتميزة، ولم تهمل الدولة إنشاء دور الصناعة ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقامت القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية في البلاد.

الاهتمام بالتنظيمات الإدارية

عمل السلطان محمد الفاتح على تطوير دولته؛ لذلك قنن قوانين حتى يستطيع أن ينظم شؤون الإدارة المحلية في دولته، وكانت تلك القوانين

مستمدة من الشريعة الإسلامية وشكل لجنة من خيار العلماء لتشرف على وضع قانون نامه المستمد من الشريعة وجعله أساساً لحكم دولته، وكان هذا القانون مكوناً من ثلاثة أبواب، يتعلق بمناصب الموظفين وببعض التقاليد وما يجب أن يتخذ من التشريفات والاحتفالات السلطانية ويقرر كذلك العقوبات والغرامات، ونص صراحة على جعل الدولة حكومة إسلامية قائمة على تفوق العنصر الإسلامي أياً كان أصله وجنسه.

اهتم محمد الفاتح بوضع القوانين التي تنظم علاقة السكان من غير المسلمين بالدولة ومع جيرانهم من المسلمين، ومع الدولة التي تحكمهم وترعاهم، وأشاع العدل بين رعيته، وجدّ في ملاحقة اللصوص وقطاع الطرق، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، فاستتب الأمن وسادت الطمأنينة في ربوع الدولة العثمانية وعندما كانت الدولة تعلن الجهاد وتدعوا أمراء الولايات وأمراء الألوية، كان عليهم أن يلبوا الدعوة ويشتركوا في الحرب بفرسان يجهزونهم تجهيزاً تاماً، وذلك حسب نسب مبينة، فكانوا يجهزون فارساً كامل السلاح قادراً على القتال عن كل خمسة آلاف آقجه من إيراد اقطاعه، فإذا كان إيراد إقطاعه خمسمائة ألف آقجة مثلاً كان عليه أن يشترك بمائة فارس، وكان جنود الإيالات مؤلفة من مشاة وفرسان، وكان المشاة تحت قيادة وإدارة باشوات الإيالات وبكوات الألوية وقام محمد الفاتح بحركة تطهير واسعة لكل الموظفين القدماء

غير الأكفاء وجعل مكانهم الأكفاء، واتخذ الكفائة وحدها أساساً في اختيار رجاله ومعاونيه وولاته.

اهتمامه بالجيش والبحرية

تميز عصر السلطان محمد الفاتح بجانب قوة الجيش البشرية وتفوقه العددي، بإنشاءات عسكرية عديدة متنوعة، فأقام دور الصناعة العسكرية لسد احتياجات الجيش من الملابس والسروج والدروع ومصانع الذخيرة والأسلحة، وأقام القلاع والحصون في المواقع ذات الأهمية العسكرية، وكانت هناك تشكيلات متنوعة في تمام الدقة وحسن التنظيم من فرسان ومشاة ومدفعية وفرق مساعدة، تمد القوات المحاربة بما تحتاجه من وقود وغذاء وعلف للحيوان وإعداد صناديق الذخيرة حتى ميدان القتال.

وكان هناك صنف من الجنود يسمى، لغمجية وظيفته الحفر للألغام وحفر الأنفاق تحت الأرض أثناء محاصرة القلعة المراد الاستيلاء عليها وكذلك السقاؤون كان عليهم تزويد الجنود بالماء تطورت الجامعة العسكرية في زمن الفاتح وأصبحت تخرج الدفعات المتتالية من المهندسين والأطباء والبيطريين وعلماء الطبيعيات والمساحات، وكانت تمد الجيش بالفنيين المختصصين استحق معه أن يعده المؤرخون مؤسس الأسطول البحري العثماني، ولقد استفاد من الدول التي وصلت

إلى مستوى رفيع في صناعة الأساطيل مثل الجمهوريات الإيطالية وبخاصة البندقية وجنوة، أقوى الدول البحرية في ذلك الوقت.

اهتمامه بالعدل

إن إقامة العدل بين الناس كان من واجبات السلاطين العثمانيين، وكان السلطان محمد شأنه في ذلك شأن من سلف من آبائه – شديد الحرص على تحقيق العدالة في أجزاء دولته، ولكي يتأكد من هذا الأمر كان يرسل بين الحين والحين إلى بعض رجال الدين من النصارى بالتجوال والتطواف في أنحاء الدولة، ويمنحهم مرسوماً مكتوباً يبين مهمتهم وسلطتهم المطلقة في التنقيب والتحري والاستقصاء لكي يطلعوا كيف تساس أمور الدولة وكيف يجري ميزان العدل بين الناس في المحاكم، وقد أعطى هؤلاء المبعوثون حرية كاملة في النقد وتسجيل ما يرون ثم يرفعون ذلك كله إلى السلطان.

وكانت تقرير هؤلاء المبعوثين المسيحيين تشيد دائماً بحسن سير المحاكم وإجراء العدل بالحق والدقة بين الناس بدون محاباة أو تمييز، وكان السلطان الفاتح عند خروجه إلى الغزوات يتوقف في بعض الأقاليم وينصب خيامه ليجلس بنفسه للمظالم ويرفع إليه من شاء من الناس شكواه ومظلمته واعتنى بوجه خاص برجال القضاء الذين يتولون الحكم

والفصل في أمور الناس، فلا يكفي في هؤلاء أن يكونوا من المتضلعين في الفقه والشريعة والاتصاف بالنزاهة والاستقامة وحسب بل لا بد إلى جانب ذلك أن يكونوا موضع محبة وتقدير بين الناس، وأن تتكفل الدولة بحوائجهم المادية حتى تسد طرق الإغراء والرشوة، فوسع لهم الفاتح في عيشهم كل التوسعة، وأحاط منصبهم بحالة مهيبة من الحرمة والجلالة والقداسة والحماية. أما القاضي المرتشي فلم يكن له عند الفاتح من جزاء غير القتل.

وكان برغم اشتغاله بالجهاد والغزوات يتتبع كل ما يجري في أرجاء دولته بيقظة واهتمام، وأعانه على ذلك ما حباه الله من ذكاء قوي وبصيرة نافذة وذاكرة حافظة وجسم قوي، وكان كثيراً ما ينزل بالليل إلى الطرقات والدروب ليتعرف على أحوال الناس بنفسه ويستمع إلى شكاواتهم بنفسه، كما ساعده على معرفة أحوال الناس جهاز أمن الدولة الذي كان يجمع المعلومات والأخبار التي لها علاقة بالسلطنة وترفع إلى السلطان الذي كان يحرص على دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها.

توسّعت الدولة العثمانية في أيام السلطان محمد الفاتح، من عام ١٤٥١ حتى عام ١٤٨١ وكان يقود الحملة ولا يحدد وجهتها، لأنه كان شديد الحرص على عدم كشف مخططاته العسكرية حتى لأقرب وأعز

قواده وقد قال في هذا الصدد عندما سئل مرة: لو عرفته شعرة من لحيتي لقلعتها، عرض أهل البندقية على طبيبه الخاص يعقوب باشا أن يقوم باغتياله، ولم يكن يعقوب مسلماً عند الولادة فقد ولد بإيطاليا، وقد ادعى الهداية، وأسلم بدأ يعقوب يدس السم تدريجياً للسلطان، ولكن عندما علم بأمر حملة سيقوم بها السلطان تجاه إيطاليا زاد جرعة السم وتوفى السلطان يوم ٣ مايو عام ١٤٨١م، ٤ ربيع الأول سنة ٨٨٦هـ عن ثلاث وخمسين سنة، ومدة حكمه ٣١ عاما، قضاها في حروب متواصلة للفتح وتقوية الدولة وتعميرها، وأتم خلالها مقاصد أجداده، ففتح القسطنطينية وجميع ممالك وأقاليم آسيا الصغرى والصرب والبشناق وألبانيا، وحقق كثيرا من المنجزات الإدارية الداخلية التي سارت بدولته على درب الازدهار ومهدت الطريق أمام السلاطين اللاحقين ليركزوا على توسيع الدولة وفتح أقاليم جديدة ومن مآثره أيضاً وضعه أول مبادئ القانون المدني وقانون العقوبات، فأبدل العقوبات البدنية، أي العين بالعين والسنّ بالسنّ، وجعل عوضها الغرامات النقدية بكيفية واضحة أتمها السلطان سليمان القانوني لاحقاً.

وقد افتضح أمر يعقوب فيما بعد، فأعدمه حرس السلطان وهناك اعتقاد أخر ينص على أن من دفع يعقوب ليدس السم للسلطان كان ابنه بايزيد الثاني رغبة منه فى تولي العرش وصل خبر موت السلطان إلى البندقية بعد ١٦ يوماً، جاء الخبر في رسالة البريد السياسي إلى سفارة

البندقية في القسطنطينية، واحتوت الرسالة على هذه الجملة لقد مات النسر الكبير وانتشر الخبر في البندقية ثم إلى باقي أوروبا، وراحت الكنائس في أوروبا تدق أجراسها لمدة ثلاثة أيام بأمر من البابا.

دُفن السلطان في المدفن الخاص الذي أنشأه في أحد الجوامع التي أسسها في الأستانة، وترك ورائه سمعة مهيبة في العالمين الإسلامي والمسيحي.